



مصطلحات قديمة في القاموس السياسي (1- 3)

بقلم رائف محمد الويشي

15 مارس 2012

ارتبطت الجريمة السياسية بالجيل الأول من البشر على الأرض في أعقاب خروج آدم عليه السلام من الجنة.. دارت الدنيا منذ ذلك التاريخ وأصبح للفساد والقتل مصطلحات داخل القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. حاز القاموس السياسي على أهم تلك المصطلحات ، تأتي تلك الأهمية في تأثير وسيطرة السياسيين المتحكمين في السلطة والمال على كل مفاصل الحياة ، هكذا غلب فساد وجرم السياسيين عدة مرات على فساد وجرم الآخرين ..

في القرن الماضي وحده تسبب السياسيون المسيطرون على أجهزة الدول التي يعيشون بها في قتل 220 مليون من بني البشر وضعفهم تقريبا من الجرحى ، صاحب ذلك تدمير يكاد يكون شاملا في بعض تلك الدول التي كانت مسرحا لهذا القتال ، ونضع أمام القارئ الكريم تلك البيانات الصادرة من مراكز دولية :

* **خسائر الحرب العالمية الأولى :** 15 مليون قتيل (ضمنهم 7 مليون مفقود تم اعتبارهم قتلى) + 22 مليون جريح + 337 بليون دولار خسائر بشرية ..

* **خسائر الحرب العالمية الثانية :** 73 مليون قتيل + 100 مليون جريح + ألف تريليون دولار تقريبا (أي أن التكاليف زادت ثلاثة آلاف مرة عن مثيلتها في الحرب الأولى) ..

* **خسائر حروب متفرقة أخرى خلال القرن العشرين (130 مليون قتيل تقريبا ، مع ملاحظة وهي أن الجرحى غالبا يكونون ضعف عدد القتلى على الأقل في أغلب الحالات) :**

- 8 مليون قتيل في الثورة البلشفية بالإتحاد السوفيتي بين عامي 1919 / 1924 ..
- 23 مليون قتيل من الجائعين في أوكرانيا بين عامي 1932 / 1939 بسبب سياسة جوزيف ستالين ..
- 1.5 مليون أرمني في تركيا على يد قوات الحكومة بين عامي 1915 / 1920 ..
- 78 مليون قتيل في الثورة الثقافية بالصين ..
- 3 مليون قتيل في فيتنام من جراء الغزو الأمريكي في فيتنام بين عامي 1958 / 1975 ..
- 1.7 مليون قتيل في كمبوديا على يد الحكومة بين عامي 1975 / 1979 ..
- 1.6 مليون قتيل في كوريا الشمالية في معسكرات الاعتقال على يد قوات كيم إيل سونج بين عامي 1948 / 1994 ..
- مليون قتيل في نيجيريا على يد رئيس الدولة يعقوب جرون بين عامي 1967 / 1970 ..
- مليون قتيل أفغاني من جراء الغزو السوفيتي بين عامي 1979 / 1991 ..
- 2 مليون قتيل من حروب صدام حسين في إيران والعراق والمناطق بين عامي 1979 / 2003 ..
- 800 ألف قتيل في رواندا من جراء الحرب الأهلية في عام 1994 ..
- نصف مليون قتيل في يوغوسلافيا من جراء سياسة ميلوسوفيتش بين عامي 1990 / 1999 ..
- 800 ألف قتيل من العراقيين من جراء الغزو الأمريكي منذ عام 2003 ..
- 2 مليون قتيل في السودان في الحرب الأهلية ..
- 3 مليون قتيل في أماكن متفرقة في العالم مثل جواتيمالا والأرجنتين وتشيلي وتيمور الشرقية والكونغو وأوغندا والجزائر وبورنديو ورواندا وليبيريا وأثيوبيا وسيراليون وزيمبابوي وسيريلانكا ولبنان وسوريا وليبيا وأماكن أخرى متفرقة ..

لقد خطط السياسيون المسيطرون على سدة الحكم في البلدان المذكورة لهذه الجرائم البشعة ودفَعوا بالشعوب كي تتصارع مع بعضها البعض ، أو قاموا بتأليب الجبهة الداخلية فقام الشعب الواحد بالاعتقال فيما بينه .. إن أسباب تلك الجرائم في الغالب تخرج من منبع واحد ، وهي رغبة الحاكم في مزيد من السيطرة والقوة وانعدام تواجد المستشارين المتخصصين ، أو عدم الاستماع لهم عند تواجدهم ..

تدور تلك الدراسة حول تحديد تلك المصطلحات السياسية التي تدفع بالحاكم إلى ارتكاب تلك الجرائم .. صحيح أن نتائج تلك المصطلحات واحدة ، لكنها تختلف في حجم الدماء والدمار الناتجين عنها .. سنتعرف في دراستنا على المصطلحات السياسية التالية : الطغيان ، الدكتاتورية ، الاستبداد ، السلطة المطلقة ، الشمولية ، الأوتوقراطية ، ومن الطبيعي أن نختم تلك الدراسة بالمصطلح الأكثر شعبية بين بني البشر ، وهو مصطلح الديمقراطية :

أولا : الطغيان

عرّف أرسطو في القرن الرابع ق . م الطغيان بأنه صورة للحكم الفردي في ممارسة السلطة دون رقيب ولا حسيب .. ويعتبر المصريون في مقدمة شعوب العالم التي عرفت الطغيان وعاشته وتعايشت معه بصورة كاملة ، ويتضح ذلك من خلال الأمر الذي أصدره الله تعالى إلى موسى عليه السلام في سورة : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، كان ذلك على الأرجح في القرن 13 ق . م ..

سمعت البشرية بهذه الكلمة مرة ثانية في القرن السابع قبل الميلاد على لسان الشعر اليوناني أرخيليوخوس ، والذي يعد أشهر شعرائها في الهجاء (يقابله الفرزدق في العربية) ..

يقول المؤرخ الأمريكي الشهير وليم ديورانت (1885 / 1981) في كتابه قصة الحضارة (مجلد 6 ص 225) أن الشاعر أرخيليوخوس كان يعيش في مملكة ليديا ، فقام أحد القادة هناك – كان يدعى جيجز – واستولى على الحكم من ملكها ، عندها قال الشاعر في وصف ما قام به جيجز : " أنا لا أرغب أن أكون طاغية " ..

عُرفت كلمة " الطاغية " على نطاق واسع بعد ذلك ، خاصة وأن العصر الذي نشأ فيه الشاعر أرخيليوخوس كان عصرا انقلابيا ، أي أكثر فيه الاقتتال من أجل السلطة .. يقول د محمد كامل عياد في كتابه (تاريخ اليونان ج 1 ص 337) أن عصر طغاة الإغريق بدأ في عام 650 ق م واستمر حتى عام 510 ق م ..

يكره الطاغية وبشكل مطلق كلمة الانتخابات ، لأنها ستذهب بحُكمه وتكشف عن كفاءات مدفونة من شعبه تحتكم إلى القوانين والدستور ، فالقانون والدستور عند الطاغية هو فقط ما يقوله ويقرره ، أرواح الناس ومصيرهم في يده يفعل بهم ما يشاء ، يقرر من يموت منهم ومن يحيى ، من يُعذب ومن يتم ترقيته وتكريمه ، من البطل ومن الخائن ، ميزانية الدولة عنده هي ملك خاص له ، وبالتالي فهو لا يعترف بأي أجهزة رقابية أو محاسبية على ما يفعله ..

ثانيا : الاستبداد

خرجت كلمة الاستبداد من البيئة اليونانية ، وهي تعنى رب الأسرة (ديسبوتيس) الذي يتولى إصدار الأوامر إلى أفراد العائلة التي من صلبه " ، كان ذلك في القرن الخامس ق . م ، وتحديدًا في أعقاب الحرب الهيلينية مع الفرس .. جاء أرسطو بعد نحو قرن من هذه الحرب ، وقام بتطوير مفهوم الاستبداد ، وقال أنه يشبه إلى حد بعيد مفهوم الطغيان ، من زاوية أن الحاكم المستبد يتعامل مع شعبه كالسيد مع عبيده ..

عرف ابن منظور (توفي في عام 1311 م) في لسان العرب (422/15) الحاكم المستبد بما يلي : " هو الذي يُمضي رأيه ولا يشاور أحدا ولا يُبالى كيف وقع رأيه " ..

فرّق أرسطو بين الطغيان والاستبداد ، الطاغية في نظره جاء غالبا عن طريق القوة العسكرية ، واستمر في حكمه مستندا عليها ، بجانب

استخدامه لأساليب احترافية من الخداع والكذب على شعبه أحيانا واحتقاره أحيانا أخرى ، ومن الطبيعي في تلك الحالة أن تتراكم الكراهية في قلوب مواطنيه ، بينما المستبد – رب الأسرة - يملك البلاد ويتعامل مع شعبه على أنهم قَصْر لم يبلغوا بعد سن الرشد ..

كان لكتاب " السياسة " لأرسطو الفضل في فضح الطاغية وتعريته أمام شعبه ، لكننا لا بد أن نعترف أن التأثير الفعلي لهذا الكتاب جاء متأخرا وفي القرن الثاني عشر ، فقد أنتصر مفهوم الاستبداد في تلك الفترة وحل مكان الطغيان ، كانت الظروف قد تغيرت ، فقد انتشرت الممالك في أوروبا وبلغت قمتها في القرن السابع عشر ، ساعد على ذلك أيضا القوة التي كانت ممنوحة للكنيسة ..

جاء ميكافيللي في القرن السادس عشر – توفى في مايو 1527 م - وأعطى قوة دفع كبيرة لما قاله أرسطو في كتابه السابق ، لقد قارن ميكافيللي في كتابه " الأمير " بين الممالك الأوربية المستبدة وبين الإمبراطورية العثمانية التي يسودها الطغيان ..

ساهمت الممارسات السلطوية للملك لويس الرابع عشر في فرنسا في شرح مفهوم الاستبداد للناس ، وساهمت الفترة الطويلة لحكمه على توضيحه بصورة كاملة لهم ، فقد حكم البلاد وهو في سن الخامسة (1634 م) واستمر في سلطاته حتى توفى في عام 1715 ، وقد اتضح أسلوبه في الحكم بعد أن أصبح رجلا يافعا وشابا قويا ، كان ذلك تحديدا بعد وفاة رئيس وزرائه القوى الكاردينال مازارين في عام 1661 م ، وقد ساعدت الظروف العائلية التي مرَّ بها لويس الرابع عشر على ترسيخ مفهوم الاستبداد لديه ، فقد ظل لا ينجب لمدة 23 عاما فاتخذ من الشعب الفرنسي أولادا له ، وعاملهم – كما ذكرنا – على أنه قصر غير راشد ..

بعد أرسطو وميكافيللي جاءت المرحلة الثالثة في انتقاد نظم الحكم ، كان ذلك على لسان فيلسوف فرنسي اسمه شارل لوي دي سيكوندا والذي عُرف باسم مونتسكيو (توفى في عام 1755 م) ..

قدم مونتسكيو ثلاثة كتب في نقد أنظمة الحكم ، وقد تركت جميعها بصمة كبيرة في هذا المجال ، ونستطيع أن نذكر بصورة مختصرة هذه الكتب الثلاثة فيما يلي :

- 1- كان كتابه الأول " رسائل فارسية " في عام 1715 م ، وقد جلب له هذا الكتاب شهرة واسعة في كل أوروبا وكان سببا في انضمامه للأكاديمية الفرنسية للعلوم ، انتقد مونتسكيو في هذا الكتاب المجتمع وأنظمة الحكم واعتبر أن كلاهما ساهما في نشوء أنظمة حكم فاسدة ..**
- 2- كان كتابه الثاني " الملكية العالمية " في عام 1734 ، وكان سببا في شن هجوم عليه من قبل النقاد ، كانت أهم ملامح الكتاب هو تقسيمه للعالم إلى شمالي يغلب عليه الجو البارد (الملكي) وجنوبي حار يغلب عليه الطابع الطغياني ، كان الفيلسوف الفرنسي الشهير فولتير (توفى في عام 1778 م) واحدا من هؤلاء النقاد الذين هاجموا مونتسكيو على نظريته ..**
- 3- كان كتابه الثالث " روح القوانين " في عام 1748 م وكان أفضل كتبه ، كانت أهم ملامح بالكتاب هي قوله أن كل نظام للحكم يجب أن يعمل على تحقيق الرفاهية للإنسان ، وعليه يجب الفصل بين السلطات التي تحكم البلاد لتحقيق تلك الرفاهية ، وهي السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية ، وقد احتل " روح القوانين " مكانا مرموقا في صدر المراجع السياسية حول العالم وما زال ..**

جاءت المرحلة الرابعة من تطور أنظمة الحكم من خلال أحد فلاسفة فرنسا أيضا ، كان اسمه بنيامين كونستانت (توفى في عام 1830) ، فقد وضع ما سبق من طغيان واستبداد جانبا ونادي بملكية دستورية ، يملك فيها الملك ولا يحكم ، ودعي إلى الحرية التي عرّفها بأنها " الاستمتاع الهادئ بالاستقلال الفردي " .. نستطيع أن نقول أن بنيامين كونستانت قد أدخل إصلاحات عميقة على مفهوم الاستبداد كأحد أهم الأنظمة الحاكمة في مرحلة التنوير ..

جاءت المرحلة الخامسة على يد اثنين من عمالقة الفكر السياسي في العصر الحديث وكانا هذه المرة من ألمانيا ، وهما الفيلسوف الألماني جورج فريدريك هيغل والفيلسوف الألماني كارل ماركس ..

اتخذ هيغل (1770 / 1831) من الثورة الفرنسية أساسا في تفكيره كشاب ثوري يسعى لإصلاح أجهزة الحكم ، وجاءت التناقضات التي أعقبت سقوط ثورة بونابرت وسيطرة الرجعية القديمة على مناطق عديدة في أوروبا لتحمل منعطفا هاما في حياة هيغل وقد أسندها إلى التطور العقلي ، هكذا احتل " العقل " مكانا كبيرا في عقله أدى إلى ما عُرف بـ " المثالية " المستندة إلى الحق والعدل والرحمة ..

يقول هيجل أنه لم يأت بجديد وأنه استند على أفكار أفلاطون وأرسطو ، بل وجميع من سبقه من فلاسفة ، بل شرح ما قاموا به في كل مرحلة من مراحل التطور العقلي ..

كان ماركس (1818 / 1883) في شبابه المبكرة من المتأثرين بكلام مواطنه فريدريك هيجل ، لكنه عارضه بعد ذلك وبشكل عكسي ، فقد اعتبر ماركس أن المادة تسبق العقل وليس كما يقول هيجل أنها – أي المادة – تلي الوعي ..
كان ماركس - الصحفي المثقف والسياسي المخضرم والفيلسوف المُنظر - يعمل بعمق في كل مجال ينكب عليه ، وقد حصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة بون في عام 1840 ..

قدم ماركس مقالاته الجريئة في مجلة بمدينة كولونيا وسرعان ما أغلقتها السلطات بسبب مقالاته ، أضطر ماركس في عام 1843 إلى الرحيل إلى باريس وهناك عكف على التعمق في دراسة الفلسفة والتاريخ والعلوم السياسية ، وقدم الفكر الشيوعي للعالم في عام 1845 ، أو ما عرف بالاشتراكية العلمية ، لقد رأى ماركس الاستغلال الذي سببته النهضة الصناعية وسيطرة طبقة من الأغنياء على أجهزة الحكم ، فحارب الرأسماليين الذين حولوا الشعوب – كما قال - إلى عبيد يعملون فقط لصالح الملاك ..

لكن الملاحظ أن كلا من هيجل وماركس قد اتفقا على أن الطغيان والاستبداد قد استوطننا في الشرق وأن الشعوب الشرقية قد تعاملت معهما بشكل يبدو وكأنه طبيعياً ..

ففي كتابه " العالم الشرقي " ص 38 يقول هيجل ما يلي : " الشعب – يقصد الشرقي - ليس لديه عن نفسه إلا أسوأ المشاعر ، فهو لم يخلق إلا ليجر عربة الإمبراطور ، وهذا هو قدره المحتوم ! وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم اليومي تدل على مبلغ ضالة الاحترام الذي يكونونه لأنفسهم كأفراد وبشر " ..

إذا نظرنا إلى ماركس فإننا نرى أنه فسر الطغيان والاستبداد الشرقي بطريقة مختلفة ، فقد أرجعها إلى الظروف الطبيعية التي جعلت من الطعام يأتي إلى الناس بطريقة مركزية تتحكم به الدولة ، فالإنتاج – في نظره – مر على مدى التاريخ بخمس مراحل من التطور (الشيوعية البدائية ، الرق ، الإقطاع ، الرأسمالية ، الاشتراكية) ، وفي الشرق تزرع الأراضي من خلال الأنهار التي تسيطر عليها الدولة وليس من خلال المطر كما يحدث في أوروبا ..

يعلق المؤرخ الفرنسي جوستاف ليبون (توفي في عام 1931) في كتابه " روح الجماعات " على علاقة الجهل بالاستبداد بقوله : " إن الجماعات بصفة عامة والجماعات الأمية بصفة خاصة لطبيعتها المضطربة وعقليتها السطحية ونفسياتها المشوشة تُقاد دائماً بالطغاة الذين يكونون بالفطرة أو الدراسة أو التجربة أو الإرشاد على بيئة من حقيقة الجماعات، فيعملون على التهيج والإثارة والتلاعب بالألفاظ والكلمات ونشر الأوهام والأحلام ورفع الشعارات والرموز، دون أن يقدموا أي برامج محددة أو نظم مفصلة أو دراسات واضحة " ..

في الحلقة القادمة سواصل الحديث إن شاء الله ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري – أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com